

خطبة بعنوان: محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: أهمية الرحمة في الإسلام

العنصر الثاني: صور من رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأفراد الأمة

العنصر الثالث: واجبنا نحو الرحمة في حياتنا المعاصرة بين الواقع والمأمول

المقدمة: أما بعد:

العنصر الأول: أهمية الرحمة في الإسلام

لقد انفردت صفة الرحمة في القرآن الكريم بالصدارة، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى، فبينما تكررت صفة الرحمة بمشتقاتها ثلاثمائة وخمس عشرة مرة، جاءت صفة الصدق مثلاً مائة وخمسة وأربعين مرة، وجاءت صفة الصبر تسعين مرة، وجاءت صفة العفو ثلاثاً وأربعين مرة، وجاءت صفة الكرم اثنتين وأربعين مرة، وجاءت صفة الأمانة أربعين مرة، وجاءت صفة الوفاء تسعاً وعشرين مرة، وهكذا!

إنَّ هذا ليس مصادفة بحال من الأحوال، وحاش لله أن تكون هناك أمور عشوائية في كتاب رب العالمين، فهو الحق الذي لا باطل فيه، وكل كلمة وحرف فيه نزل بقدر ولهدف.

كما اهتم نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم بذكر هذا الخلق العظيم والتأكيد عليه في أحاديث عدة ؛ فعند الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ" (البخاري)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةً جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ" (البخاري)، وتوعد صلى الله عليه وسلم أولئك الذين لا يرحمون أنهم أبعد الناس عن رحمة الله سبحانه وتعالى فقال: " لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ" (متفق عليه)، وقال صلى الله عليه وسلم في أهل الجنة الذين أخبر عنهم بقوله: "أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: دُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي فُرْجٍ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ دُو عِيَالٍ" (مسلم)

وهذه الرحمة قد بلغت درجة متناهية في حق الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ذكر الله عز وجل أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم! قال تعالى: "النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ.."[الأحزاب : 6]

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر هذا المعنى تصريحًا، وحمل نفسه أعباء ضخمة نتيجة هذه الرحمة ، وذلك عندما قال: "مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَقْرَأُ وَإِنْ شِئْتُمْ {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ؛ وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ" (متفق عليه).

فرحمة الرسول صلى الله عليه وسلم هنا واسعة، فهو يعلن بوضوح أن ما تركه المسلم من ميراث وثروة فهو لورثته، أما إن كان مَدِينًا أو له عيال، فالرسول صلى الله عليه وسلم يتحمل دَيْنَهُ، ويتحمل تربية عياله؛ وفي هذا رحمة غير مسبوقه، ولا يماثلها أو يقترب منها رحمة في العالم.. فهو لا يصيب من خير المؤمنين، ولكن يتحمل مشاكلهم وهمومهم وتبعاتهم.. أي الناس يتحمل مثل هذا؟!!

إنها الرحمة المتجردة تمامًا عن أي هوى، والتي ليس من ورائها نفع دنيوي، ولا هدف شخصي.. ؛ لقد وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته لرعاية شئون أمته، وللاهتمام بالآخرين، مع أنهم كثيرًا ما خالفوه وقاوموه، لكنه ظل محافظًا على نهجه الرحيم، وحرصه الدءوب على حمايتهم ورعايتهم..؛ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْفَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَعْلِبِنَهُ فَيَفْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَفْتَحِمُونَ فِيهَا" [البخاري]. هكذا كانت حياته صلى الله عليه وسلم.

إنها رحمة من قال عن نفسه: [يا أيها الناس ! إنما أنا رحمة مهداة] [السلسلة الصحيحة - الألباني]،

ومن قال عنه من كتب على نفسه الرحمة: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } (الأنبياء: 107)

لقد بلغت رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته حدًا لا يتخيله عقل، حتى إن الأمر وصل إلى خوفه عليهم من كثرة العبادة!! ومع أن التقرب إلى الله والتبتل إليه أمر محمود مرغوب، بل هو مأمور به، لكنه صلى الله عليه وسلم كان يخشى على أمته من المبالغة في الأمر فيفتقدون التوازن في حياتهم، أو يصل بهم الأمر إلى الملل والكسل، أو يصل بهم الحد إلى الإرهاق الزائد عن طاقة الإنسان، لذلك رأيناه كثيرًا ما يُعرض عن عملٍ من الأعمال، مُقَرَّبٍ إلى قلبه، محببٍ إلى نفسه، لا لشيء إلا لخوفه أن يُفرض على أمته فيعنتهم ويشق عليهم..؛ تقول أم المؤمنين عائشة : "إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَدْعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةً أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ" [البخاري ومسلم] ولذلك كان كثيرًا ما يقول كلمة: "لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي"، دلالة على أنه يحب الأمر، ولكنه يخشى الفتنة على الأمة، فانظر كيف كان لا يخرج في كل المعارك لكي لا يتحرَّج الناس في الخروج في كل مرة، وكيف كان لا يؤخر صلاة العشاء إلى

منتصف الليل، وكيف رفض الخروج إلى قيام الليل جماعة في رمضان خشية أن يفرض على المسلمين، وكيف تأخر في الرد على من سأل عن تكرار الحج في كل عام خشية فرضه بهذه الصورة على المسلمين، وهكذا.....

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاف على أمته التي ستأتي بعده، ويرحمها، ويتمنى لها السلامة والأمن، حتى تمنى أن يراهم رأي العين من شدة شوقه إليهم!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا. قَالُوا أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ فَقَالُوا كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرِي خَيْلٍ دُهُمٍ بُوهِمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لِيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنِ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّلَّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سَحَقًا سَحَقًا" [مسلم].

وما أجمل أن نختتم هذا العنصر بموقف يعكس مدى انشغال رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرته ورحمته بها في دنياهم وأخراهم، ومدى تقدير رب العالمين سبحانه وتعالى لهذه الرحمة..؛ فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ؛ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا" (البخاري ومسلم)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: "أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه الصلاة والسلام: "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي" (إبراهيم: 36) وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: "إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (المائدة: 118)؛ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي" وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟" فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللَّهُ: "يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ" [مسلم] فهل بعد ذلك من رحمة!!؟

العنصر الثاني: صور من رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأفراد الأمة:

أحبتني في الله: لخلق الرحمة - في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم - صور عديدة تشمل أفراداً وأعماراً وألواناً مختلفة من ضعاف المجتمع، وسوف نذكرها لنأخذ منها العبرة والعظة ونطبقها على أرض الواقع:

فمنها الرحمة بالخدم والعبيد: فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ وَلَا لِمُ صَنَعْتَ وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ" (البخاري مسلم)، وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" (البخاري ومسلم) ؛ ولم تكن هذه الوصية برحمة الخدم والعبيد فترة معينة في حياته، أو عند ظروف مخصوصة، إنما ظل كذلك حتى لحظات موته الأخيرة.. وكان من آخر وصاياه للمسلمين: "الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" [السلسلة الصحيحة - الألباني]

ومنها الرحمة بالأطفال والصبيان: فقد كان صلى الله عليه وسلم رحيمًا بالأطفال: فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ" (متفق عليه)؛ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرَضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ ظُهُرُهُ قَيْنًا فَكَانَ يَأْتِيهِ وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيُدْخَنُ فَيَأْخُذُهُ فَيَقْبَلُهُ" . (رواه مسلم ؛ وانظر كتاب: العيال ؛ ابن أبي الدنيا)؛ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ وَكَانَ ظُهُرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَسَمَّاهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ (البخاري)؛ وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "أَرْسَلْتُ ابْنَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأَتَيْنَا فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنَهَا فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَعَادُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَتَفَقَّعُ قَالَ حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَأَنَّهَا شَنُّ فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ سَعْدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا فَقَالَ هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ" (البخاري)

ومنها الرحمة بالضعفاء ولين الجانب لهم: فعن جَابِرٍ ، قَالَ : لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهَاجِرَةَ الْبَحْرِ ، قَالَ : أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَى ، يَا رَسُولَ اللَّهِ

، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، فَاِنْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا عُدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ : يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : صَدَقْتُ ، صَدَقْتُ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ ؟. (سنن ابن ماجه)؛ وَعَنْ سَعْدِ قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُدَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } (مسلم)

ومنها الرحمة مع الأسرى: فقد تجلَّت مظاهر الرحمة في تعامل رسول الله مع الأسرى؛ فها هي سفانة ابنة حاتم الطائي التي أُسرت في حرب مع قبيلة طيِّئ، فجعلت في حظيرة بباب المسجد، فمرَّ بها رسول الله ؛ فقامت إليه، وكانت امرأةً جَزَلَةً [عاقلة]؛ فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامُنُّنُ عليَّ مَنْ اللهُ عليك... فقال رسول الله: "قَدْ فَعَلْتُ، فَلَا تَعْجَلِي بِخُرُوجِ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِكَ مَنْ يَكُونُ لَهُ ثِقَةٌ حَتَّى يُبَلِّغَكَ إِلَى بِلَادِكَ، ثُمَّ آذِنِي". تقول ابنة حاتم الطائي: وأقمتُ حتى قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَلِيٍّ أَوْ قِضَاعَةَ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ آتِي أَخِي بِالشَّامِ، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِي لِي فِيهِمْ ثِقَةٌ وَبِلَاغٌ. قالت: فكساني، وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجتُ معهم حتى قَدِمْتُ الشَّامَ" (سيرة ابن هشام)؛ وهنا وقفة مع هذا الموقف العظيم؛ نرى فيه بوضوح هذا التعامل الإنساني الرحيم من رسول الله مع هذه الأسيرة؛ حيث لم يَرْضَ لها أن تخرج منفردة وحيدة، بل طلب منها ألاَّ تتعجَّل بالخروج حتى تجد من قومها مَنْ يكون ثقةً فتسير معه. وكان صلى الله عليه وسلم يدفع الأسير إلى بعض صحبه ويقول: {أحسن إليه} فيؤثر على نفسه وأهله إمعانا في العمل بوصية رسول الله، وأملا في دخوله ضمن أبرار عباد الله، {ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا}.

وعاتب جنده على قتل رجل مشرك رحمة بامرأة تحبه. روى الطبراني في الأوسط بسند حسن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية فغنموا، وأخذوا رجلا منهم، فقال: إني لست منهم، إني عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها ثم اصنعوا ما بدا لكم، فلما رآها قال: أسلمي حُبَيْش قبل نفاذ العيش. قالت:

نعم فديتك. ثم قدموه وضربوا عنقه. فوقعت عليه وشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت حَزَنًا، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه بما جرى فقال: {أما كان فيكم رجل رحيم}.

ومنها الرحمة في إقامة الحدود: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: "أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ قَالَ: اضْرِبُوهُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ؛ فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْرَكَ اللَّهُ. قَالَ: لَا تَقُولُوا هَكَذَا لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ" (البخاري)

ومنها الرحمة بالنساء: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الوصية بالنساء، وكان يقول لأصحابه:

"اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا" [البخاري]، بل إن هناك ما هو أعجب من ذلك، وهو رحمته صلى الله عليه وسلم بالإماء، وهنَّ الرقيق من النساء، فقد روى أنس بن مالك قال: "إِنَّ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ!" [البخاري]

إننا نتحدى العالم أجمع أن يأتي لنا بموقف من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم آذى فيه امرأة أو شقَّ عليها، سواءً من زوجاته أو من نساء المسلمين، بل من نساء المشركين.. ويكفي أن نسرِد بعض مواقفه مع النساء. ولو دون تعليق. لنذكر مدى رحمته بهن..

فقد استأذن أبو بكرٍ على النبي صلى الله عليه وسلم فسمع صوتَ عائشة - ابنته - عاليًا، فلَمَّا دَخَلَ تَنَاولَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ أَلَا أَرَأَيْكَ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْجِرُهُ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: "كَيْفَ رَأَيْتَنِي أَنْقَذْتُكَ مِنَ الرَّجُلِ؟" قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَهُمَا قَدْ اصْطَلَحَا فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ فَعَلْنَا قَدْ فَعَلْنَا" [أبو داود، وأحمد، والنسائي].

فرحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا قد فاقت رحمة الأب، فأبو عائشة - وهو الصديق - أراد أن يعاقبها على خطئها، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لرحمته بها حجز عنها أباه!

وأحيانًا تخطئ زوجته خطأً كبيرًا، ويكون هذا الخطأ أمام الناس، وقد يسبب ذلك الإحراج له صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فمن رحمته يُقدِّر موقفها، ويرحم ضعفها، ويعذر غيرتها، ولا يفعل أو يتجاوز، إنما يتساهل ويعفو.. فقد روى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند إحدى أمهات المؤمنين فأرسلت أخرى بقصعة فيها طعام فضررت يد الرسول فسقطت القصعة فانكسرت فأخذ صلى الله عليه وسلم الكسرتين فضمَّ إحداهما إلى الأخرى فجعل يجمع فيها الطعام، ويقول: "عَارَتْ أُمُّكُمْ كُلُّوْا"، فأكلوا، فأمسك

حَتَّى جَاءَتْ بِقَصْعَتَيْهَا الَّتِي فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَتِ الْقَصْعَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الرَّسُولِ وَتَرَكَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرْتَهَا [البخاري]. لقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الموقف ببساطة، وجمع الطعام من على الأرض، وقال لضيوفه: "كلوا"، وعلل غضب زوجته بالغيرة، ولم ينس أن يرفع قدرها، فقال "غارت أمكم"، أي أم المؤمنين!! فأى رحمة هذه التي كانت في قلبه صلى الله عليه وسلم!! قارن بين ذلك وبين ما يحدث في البيوت وجيرة النساء!!

ومنها الرحمة بالحيوان: فقد تجاوزت رحمته صلى الله عليه وسلم ذلك كله إلى الحيوان والبهيمة؛ فيروي عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه فأتاه صلى الله عليه وسلم فمسح ظفراه فسكت، فقال صلى الله عليه وسلم: "من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟" فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكاً إليّ أنك بُجِعُهُ وَتُدْبِيهِ" (أبو داود)، (وَتُدْبِيهِ: أي تُكْرِهُهُ وَتُتَعِبُهُ وَزَنًا وَمَعْنَى)، وقد مرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: "اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً" (السلسلة الصحيحة-الألباني)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عُدْبِتْ امْرَأَةً فِي هِرَّةٍ سَحَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (متفق عليه)، وفي المقابل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَفَهَا فَسَقَتْهُ فَعُفِّرَ لَهَا بِهِ" (متفق عليه)، و«الموق»: الحف. وَ «يُطِيفُ»: يدور حول، «رَكِيَّةٌ»: البئر. بشرية ماء غفرت ذنوبها، وبشرية ماء سترت عيوبها، وبشرية ماء رضي عنها رها، بل بشرية ماء غفر الله الخطايا للباغيا فكيف بمن يرحم عباد رب البرايا!!

وتجاوز رحمته البهائم إلى الطيور الصغيرة التي لا ينتفع بها الإنسان كنفعه بالبهائم، ولننظر إلى رحمته بعصفور! حيث يقول رسول الله: "مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ" (النسائي وابن حبان)

ومنها الرحمة بكبار السن: فقد جاء أبو بكر بأبيه عام الفتح يقوده نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه كالثغامه بياضا من شدة الشيب، فرحم النبي صلى الله عليه وسلم شيخوخته وقال: "هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه، قال أبو بكر رضي الله عنه: هو أحق أن يمشي إليك يا رسول الله من أن

تمشي إليه. " [مجمع الزوائد - الهيثمي] وهو القائل صلى الله عليه وسلم: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوقِّرْ كَبِيرَنَا " [السلسلة الصحيحة - الألباني]

ومنها الرحمة بالكفار: فالرحمة في الإسلام لم تقتصر على المسلمين فحسب؛ بل تعدت لتشمل الكفار كذلك، فعندما قيل له صلى الله عليه وسلم ادع على المشركين قال: "إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة" (مسلم) ، وقال في أهل مكة - لما جاءه ملك الجبال ليأمره بما شاء- : " بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً " (البخاري ومسلم)، ولما أصيب في أحد قال له الصحابة الكرام ادع على المشركين فقال: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (شعب الإيمان للبيهقي)

ومنها رحمة النبي بأمته: ولا ريب في ذلك لأنها الهدف الذي أرسل به وله، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ؟} (التوبة: 128)، ومن مظاهر رحمته بأمته لضعفها يفرض الله عليه خمسين صلاة فما يزال أمتي أمتي حتى تخفف هذه الصلاة إلى خمس رحمة بأمته، ويأمره جبريل أن يقرئ أمته على حرف فيقول: إن أمتي لا تطيق ذلك، فيقول: أقرئهم على حرفين حتى أوصله إلى سبعة أحرف.

نعم أيها الإخوة الكرام ! إنها الرحمة التي أسكنها الله القلوب، وفرج بها الغموم والهموم عن كل مهموم ومنكوب، إنها الرحمة التي يرحم الله بها الرحماء، ويفتح بها أبواب البركات والخيرات من السماء. أحبتي في الله: إن وصف رحمة النبي صلى الله عليه وسلم لا تسعه هذه الوريقات في هذه الدقائق المعدودات؛ فإنها تحتاج إلى مؤلفات ومجلدات ؛ ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أعتذر لحبيبي وقره عيني صلى الله عليه وسلم لتقصيري في وصفه كما ينبغي أن يوصف؛ فأقول:

عذرا رسول الله إن قصرت في..... وصفكم فإن جمالكم لن يوصفا
جاءت قد بما ذرة من نوركم قد جمّل الرحمن منها يوسف
والله لو جدّ العباقر كلهم في..... وصف أفضل لكم لن تعرفا
والله لو ماء البحار بجمعها كان المداد لوصف أحمد ما كفى
والله لو قلم الزمان من البداية..... للنهية ظل يكتب ما اكتفى
والله لو قبر النبي تفجرت..... أنواره للبدر ولّي واختفي
تكفيه لقياً في السموات العلا..... وبحضرة الرب الجليل تشرفا
يكفيه أن البدر يخسف نوره..... لكن نور محمد لن يخسف

قائل هذه الأبيات د / ناصر بن سليمان العمر - حفظه الله - الأستاذ بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مع التحفظ على بعض العبارات فيها.

العنصر الثالث: واجبنا نحو الرحمة في حياتنا المعاصرة بين الواقع والمأمول:

أحبتني في الله: تعالوا بنا عباد الله ننزل سوياً إلى أرض الواقع لنعرف واجبنا نحو الرحمة في حياتنا المعاصرة مع كل أفراد المجتمع حتى نخرج من موضوعنا بفائدة وتطبيق عملي:

فيجب على ورؤساء المصالح ومديري المؤسسات وأصحاب المصانع والشركات في كل مكان: أن يتقوا

الله في الأجرء والعاملين، ولا يذيقونهم الذل والهوان والقهر والاستبداد، مستغلين ضعفهم وحاجتهم للمال فالله أقدر عليكم منهم، فعن أبي مسعود الأنصاري قال: "كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لِلَّهِ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ، فَالْتَفَتْتُ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِرُؤُوسِهِ اللَّهُ. فَقَالَ: أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتِكَ النَّارُ أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارُ" (مسلم)، وضح عند أبي داود أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: كم أعفو عن الخادم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: " كل يوم سبعين مرة"، وإذا وجب عليك ذلك مع عبدٍ ملكٍ لك، فمن باب أولى تحسن معاملة من هم تحت يدك، وقد أوصانا بهم صلى الله عليه وسلم فقال: "إِخْوَانُكُمْ نَحْوُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنَّ كَلْفَتْمُوهُمْ فَأَعْيَنُوهُمْ" (البخاري)

ويجب على كل من يملك البهائم والدواب والطيور: ولا سيما في ريف مصر، فعن صور التعذيب والضرب

والفجيرة حدث ولا حرج، فيستغلون عدم قدرتهم على الكلام أو الدفاع عن النفس، ولكنها بلسان حالها تشكو إلى ربها، كما قال عنتر بن شداد عن الفرس:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى..... ولكن لو علم الكلام مكلمي

وعن ابن مسعود قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرةً (عصفورة) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " من فجع هذه بولدها؟ ردوها ولدها إليها " ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: " من حرق هذه؟" قلنا: نحن يا رسول الله، قال: " إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار " (أبو داود). فضلاً عن تعطيل أمة من النمل عن التسييح لله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

"قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرِيَّةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أُحْرِقَتْ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَّةِ تُسَبِّحُ!" (البخاري)

فيا لله، حتى البهائم تعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم رحمةٌ من الله.. فأين الناسُ اليوم من إيذاء البهائم؟ بل إيذاء البشر والاستخفاف بهم.. أين أنت يا راعي الغنم والإبل؟ أين أنت يا ربَّ الأسرة؟ ويا أيها المدرسُ في المدرسة؟ ويا أيها المسئول في الوظيفة؟ ويا كلَّ من ولي أمرًا من أمور المسلمين؟ اتقوا الله فيما استرعاكم، ولئن كان المصطفى صلى الله عليه وسلم قد مات، فلا تصل إليه الشكوى، فإن ربه حيٌّ لا يموت، يراكم ويسمعكم، ولكن يؤخركم إلى أجل لا ريب فيه، {ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (البقرة: 281، وآل عمران: 161)

ويجب على كل من رأى أحداً من ذوي الاحتياجات الخاصة: أن يقضي حاجته ويرفق به، فعن أنس رضي الله عنه: أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة! فقَالَ: "يا أمّ فلان! انظري أيّ السككِ شئتِ، حتّى أقضي لك حاجتك"، فحَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حتّى فرغت من حاجتها (مسلم). وهذا من حلمه وتواضعه صلى الله عليه وسلم وصبره على قضاء حوائج ذوي الاحتياجات الخاصة، وفي هذا دلالة شرعية على وجوب تكفل الحاكم برعاية ذوي الاحتياجات الخاصة، صحياً واجتماعياً، واقتصادياً، ونفسياً، والعمل على قضاء حوائجهم، وسد احتياجاتهم.؛ وإذا كان الإسلام قد قرر الرعاية الكاملة لذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل على قضاء حوائجهم، فقد قرر أيضاً أولوية هذه الفئة في التمتع بكافة هذه الحقوق، فقضاء حوائجهم مقدم على قضاء حوائج الأصحاء، ففي حادثة مشهورة أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبس في وجه رجل أعمى -هو عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه- جاءه يسأله عن أمرٍ من أمور الشرع، وكان يجلس إلى رجالٍ من الوجهاء وعلية القوم، يستميلهم إلى الإسلام، ورغم أن الأعمى لم ير عبوسه، ولم يفتن إليه، فإن المولى تبارك وتعالى أبى إلا أن يضع الأمور في نصابها، والأولويات في محلها، فأنزل سبحانه آيات بينات تعاتب النبي الرحيم صلى الله عليه وسلم عتاباً شديداً يقول الله فيها: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِي * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} (عبس: 1-5)، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم -بعد ذلك- يقابله، فيهش له ويبش، ويبسط له الفراش، ويقول له: "مرحباً بمن عاتبني فيه ربي!" (تفسير القرطبي)؛ ففي هذه القصة، نرى علّة المعاتبة؛ لكونه صلى الله عليه وسلم انشغل بدعوة الوجهاء عن قضاء حاجة هذا الكفيف، وكان الأولى أن تُقضى حاجته، وتقدم على حاجات من سواه من الناس. وتجلت رحمة الحبيب صلى الله عليه وسلم بذوي

الاحتياجات الخاصة، في عفوه عن جاهلهم، وحلمه على سفيهم، ففي معركة أحد [شوال 3هـ]، لما توجه الرسول صلى الله عليه وسلم بجيشه صوب أحد، وعزم على المرور بمزرعة لرجل منافق ضير، أخذ هذا المنافق الضير، يسب النبي صلى الله عليه وسلم وينال منه، وأخذ في يده حفنة من تراب وقال -في وقاحة- للنبي صلى الله عليه وسلم: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها! حتى هم أصحاب النبي بقتل هذا الأعمى المحرم، فأبي عليهم -نبي الرحمة- وقال: "دعوه!" (السيرة النبوية: ابن كثير)، فلم ينتهز رسول الله ضعف هذا الضير، ولم يأمر بقتله أو حتى بأذيته، رغم أن الجيش الإسلامي في طريقه لقتال، والوضع متأزم، والأعصاب متوترة، ومع ذلك لما وقف هذا الضير المنافق في طريق الجيش، وقال ما قال، وفعل وما فعل، أبا رسول الله إلا العفو عنه، والصفح له، فليس من شيم المقاتلين المسلمين الاعتداء على أصحاب العاهات أو النيل من أصحاب الإعاقات، بل كانت سنته معهم؛ الرفق بهم، والاتعاظ بجاهلهم، وسؤال الله أن يشفيهم ويعافينا مما ابتلاهم.

ويجب على كل الآباء والقائمين على المساجد: أن لا تطردوا الصبيان من المساجد أو تعنفوهم أو تسبوهم وتقهروهم، إنهم فلذات أكبادكم فعاملوهم برفق ورحمة؛ وعلموهم واحتضنوهم، وليكن قدوتكم نبينا في ذلك، فعن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدي على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول: "اللهم ارحمهما، فإني أرحمهما" (البخاري)، أين نحن من ذلك؟! قارن بما يحدث الآن!! أيها الأبناء والبنات، عليكم بير والديكم فهم في أهون درجات الضعف، وهم أولى الناس وأحقهم بالرحمة، فببرهما تستجلب الرحمت والبركات {وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} (الإسراء: 24)، واعلم أن الإنسان يُخلق ضعيفاً ثم قوياً ثم ينحدر إلى درجة الضعف مرة أخرى، وهذا يسمى (المثلث الهرمي) وقد صور الله ذلك فقال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} (الروم: 54)، كم من أسر تزوج شبابها وبناتها ثم ينفرد كل واحد بمعيشة وينزل الأبوان في كوخ متواضع يذكرهما بماضيتهما، أما عن المعاملة فحدث ولا حرج!!

ويجب على الأزواج: الرحمة بالنساء وأن يتقوا الله فيهن، فالمرأة ضعيفة مخلوقة من ضلع أعوج، وإني أعلم رجالاً يعاملون الزوجات معاملة العبيد ناهيك عن الإهانة والسب والتقيح وجميع صور الذل والهوان، وغفلوا عن قول النبي: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" (الترمذي)

ويجب على الأغنياء: تعهد الأراامل والفقراء والضعفاء والمحتاجين والمساكين والرحمة بهم، ولقد ربي النبي صلى الله عليه وسلم صحابته على هذا الخلق العظيم، فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتعهد امرأة عمياء في المدينة يقضي لها حاجاتها سرّاً إبان خلافته للمسلمين، وكان يجلب لأهل الحي أغنامهم، فلما استخلف وصار أمير المؤمنين قالت جارية منهم -يعني من نساء الحي- بعد أن صار أبو بكر خليفة: الآن لا يجلبها. تقول: لقد صار قائد الدولة وأمير المؤمنين يسير الجيوش ويتحمل المسئوليات هل يلتفت إلى غنمنا ويجلبها؟ الآن لا يجلبها، فسمع بذلك أبو بكر رضي الله عنه فقال: بلى، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن شيء كنت أفعله. (جامع العلوم والحكم لابن رجب) ، وكان عمر يتعهد الأراامل يستقي لهن الماء بالليل، ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة، فدخل إليها طلحة نهاراً، فإذا هي عجوز عمياء مقعدة، فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا مذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك طلحة، عثرت عمر تتبع؟! (أبو نعيم في الحلية)

أحبتني في الله: أذكركم جميعاً أفراداً وجماعاتٍ بالدعاء الخالد والوصية العظيمة من النبي صلى الله عليه وسلم لمن بعده لكل من تولى شيئاً من هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة فيدعو ربه تبارك وتعالى: "اللَّهُمَّ مَنْ وَليَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَليَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ" (مسلم) فالحاكم يرفق بالرعية؛ والطبيب يرفق بالمريض؛ والمدرس يرفق بالتلميذ؛ والموظف يرفق بالناس ويقضي مصالحهم..... إلخ .

أيها المسلمون: ألا ما أحوج البشرية إلى هذه المعاني الإسلامية السامية، وما أشد افتقار الناس إلى التخلق بالرحمة التي تضمّد جراح المنكوبين، والتي تواسي المستضعفين المغلوبين، ولا سيما في هذا العصر، الذي فقدت فيه الرحمة من أكثر الخلق، فلا يسمع في هذا العصر لصرخات الأطفال، ولا لأنين الثكلى، ولا لحنين الشيوخ، ولا لكلمة الضعفاء، لا يسمع فيه إلا للغة القوة، ومنطق القدرة، فإذا استحکم الظلام في النفوس، وطغى طوفان المادة الجافة آذنت الرحمة بالرحيل، وقال قائلهم: " إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب "، و " إن لم تجهل يُجهل عليك "، و " إن لم تتغدّ بزیدٍ تعشَى بك " .

أحبتني في الله: عليكم بالرفق واللين والرحمة بجميع فئات المجتمع، الآباء والصبيان والأراامل والعجزة والأجراء وغير ذلك مما ذكرنا، إننا إن فعلنا ذلك تحقق فينا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى" (مسلم)؛ ألا

فلنتخيل العالم وقد طُبِقَ فيه هذا المنهج، وانتشرت فيه هذه الرحمة، ألن يكون ذلك سببًا في سعادة بحث
عنها الكثيرون فلم يجدوها!!
اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرفُ عنا سيئها إلا
أنت.

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية
د / خالد بدير بدوي